إيمان خليفة ... سيرة اللاعنف في حياة شابة لبنانية

نادر سراج

إيمان خليفة التي تطل من خلف السطور اللاحقة لا تحضر هنا عبر سيرة ذاتية لباحثة مجدّة عملت في كلية بيروت الجامعية وفي معهد الدراسات النسائية في العالم العربي. فنحن في الحقيقة بصدد سيرة فردية / جماعية تتماثل فيها حيوات آخرين تشاركوا معاً في منتصف العام ١٩٨٤ لإطلاق أول تيار للاعنف في لبنان، في حمأة أجواء تقاصف وتدمير وانقسام. من هنا نتجاوز في هذه الصفحات المسهبة حدود التوصيف السردي المحض، لنظّهر صورة هذه المناضلة الشابة، ومن ثمّ لنقارب المناخ السياسي الاجتماعي الذي أسهم في بروز "الظاهرة" وصعود "بطلتها" على مسرح الأحداث اللبنانية بحلول السنة العاشرة للحرب الأهلية.

أسلط الضوء هنا على معالم من السيرة الذاتية لمناضلة لبنانية شابة، داعية الانتفاضة الشعبية الأولى، والصوت الصارخ للسلم الأهلي التي أطلقت في ربيع العام ١٩٨٤ دعوة صادقة لوقف سنوات الحرب الأهلية ووأد الفتنة الجامحة التي استعرت في "ربوع" لبنان وخلفت قتلاً ودماراً وتشريداً وإعاقة. هذه الناشطة ضد اللاعنف، وأتتني وآخرين الفرصة للتعرف إليها، والتجاوب مع صرختها العفوية والصادقة لتغليب لغة التعقل والاعتدال والحوار ووقف آلة الحرب والدمار.

صورة إيمان خليفة بملامحها الإنسانية وتفاصيل مسيرتها النضالية ضد الحرب، متبوعة بخيبتها وهجرتها الباريسية، سنحاول تظهيرها عبر مشاهد تختلف وتأتلف في آنٍ معاً لتشكل "بورتريه"، مواطنة "عادية" خرجت من صفوف المشاهدين العزّل وتجرأت فخاضت وآخرين غمار تجربة "إيقاف" عجلات الحرب. ولم تدري أنها ليست "مرجعية" أو "فريقاً" مؤثراً، وأنها بذلك ستتجاوز كأنثى "المحرمات" المرسومة، وستواجه وحيدة الحقيقة العارية للأشياء!

ما فكرت يوماً في قدرتي على الكتابة عن شخص عزيز خضت وإياه تجربة مميزة، ومشينا معاً خطوات على درب جلجلة لبنان، وغادرنا مبكراً، وعلى غفلة إلى عالم الخلد. لكن سيرة حياة إيمان خليفة التي جمعتني بها زمالة "مسيرة ٦ أيار ١٩٨٤"، وتطورت علاقتنا فيما بعد لتمسي صداقة وطيدة، تستحق التوقف عندها لإيفائها بعض حقها على وطنها وعلينا، ناهيك عن استخلاص ما فيها من أمثولات وعبر.

****

إيمان تدوّن يوميات اللاعنف

في مدوناتها الشخصية التي حصلت عليها لاحقاً من شقيقتها السيدة وفاء خليفة عيدو، تذكر أن فكرة المسيرة واتتها قبل يومين من حلول الذكرى التاسعة للحرب الأهلية (١٣ نيسان ١٩٧٥) وتحديداً عشية يوم الأربعاء في ١١ نيسان ١٩٨٤ الذي كان "نهاراً مجنوناً كمعظم أيامنا في هذا البلد. كان القصف على أشده في المنطقتين على السواء، واستمر حتى الثامنة مساءً. وأذكر أن منزل الرئيس تقي الدين الصلح أصيب في القصف". إيمان إبراهيم خليفة المواطنة المسالمة والتي كانت يومها تعمل باحثة في معهد الدراسات النسائية في كلية بيروت الجامعية، والحائزة على شهادة علم نفس الأطفال من الجامعة نفسها (١٩٧٨)، كانت لحظتها "جالسة في سريري أقرأ كتب الأطفال، أقيمها للمكتبة، شعرت بضيق وبخوف وبقلق. كان الدفتر أمامي، والقلم بيدي، فكتبت...".

نداؤها العفوي توجه إلى الأكثرية الصامتة وصدّرته بعبارة "إليكم أيها الصامتون في منازلكم..." ودعت فيه إلى المشاركة بمسيرة "نطالب فيها بإنهاء مأساتنا ومهزلتنا في آن معاً". حسّها الأنثوي، وربما خيبتها من الجنس الآخر الذي تصدر مجالَيْ السياسة والقتال، دفعاها للتركيز على الطابع النسوي للمسيرة التي أطلقتها من كوامن أنوثتها وحفزّت بنات جنسها للمشاركة فيها والخروج عن صمتهن وإعلاء الصوت "تنادي بها سيدات لا حول لهنّ ولا قوة سوى أصواتكم...". وذّيل النداء بتوقيعها. وتم تحديد مركز الانطلاق وتاريخه (الاحد ٢٩ نيسان الساعة العاشرة من أمام الاونيسكو).

نداؤها الأول الذي وقعته هي و٣٤ شخصاً جلّهم من الأصدقاء والأقارب، صاغته بأسلوب سهل ومباشر إن بسطوره الإثني عشر أو بلغته المأنوسة أو بتعابيره البسيطة التي خاطبت فيها المواطنين ولامتهم على لامبالاتهم: "تتقبلون كل الحلول.. عاكفون في منازلكم... أخائفون أنتم؟"... وانتهت بالدعوة إلى التحرك "أخرجو او وانضموا إلى بعضكم ولننطلق نهار الأحد في ٢٩ نيسان، الساعة العاشرة أمام الاونيسكو". ولاحقاً صرحت أنها اضطرت إلى تأجيل هذا الموعد نظراً للحاجة إلى تعبئة المتظاهرين فبات ٦ أيار. ولتحقيق فكرتها ووضع مضمون النداء قيد التطبيق، سارعت إلى القيام بسلسلة من الاتصالات. ولم يخطر ببالها "أنها في غضون أسبوع واحد ستصبح حديث كل إنسان وعلى صفحات كل الجرائد والمجلات والصحف العالمية".

وتتذكر أن الإشكال هو في لامبالاتنا الجماعية، فتقول في موضع آخر "نقمتي على اللبنانيين كبيرة، كيف نقبل كل ما يجري دون أن نحاول شيئاً".

حماسها المفرط لتحشيد الناس حول فكرة السلام ووضع حدٍّ لأوزار الحرب جعل بعض المقربين منها يخافون عليها من مغبة "دخول عالم السياسة". عالم كانت مقدراته يومها بأيدي "أمراء" أمسكوا بمصائر النساء والأطفال والرجال على حدّ سواء. امتهان السياسة أو المجاهرة برفضها لم يكونا بالطبع متاحين للنساء. فكيف بالمغمورات منهن! ردت إيمان يومها بالقول: إن جلّ ما تتمناه هو "التعبير عن الرأي والتنفيس قليلاً" وترداد ما يقوله الناس في بيوتهم. كانت على الدوام تنطق بلسان بسطاء القوم وتستعيد أقوالهم التي تتناهى إلى أسماعها. مرت الذكرى التاسعة للحرب، وفي ١٤ نيسان "بدأت قصة المسيرة" تأخذ طابعاً جدياً وتنتشر قليلاً ثم قليلاً وتكبر كالكرة الثلجية". الجهود الفردية مشكورة ، ولكنها لا تفي بالغرض المنشود. لذا اقترح عليها أصدقاؤها أن توسّع حلقة اتصالاتها وأن تشرك منظمات المجتمع المدني وجمعيات كبرى مثل "المقاصد". فوافقت وتمّ الاتفاق على عقد لقاء في ١٧ نيسان مع مندوبين عنهم (سعيد عيتاني وصالح فروخ وابراهيم بدر وبشير عيتاني). الاجتماع تأجل إلى اليوم التالي ومن ثم إلى يوم الاثنين في ٢٣ نيسان. في ١٧ نيسان؛ بادرت صديقتها السيدة نيكول مشنوق إلى دعوة ثمانية أشخاص لمناقشة الفكرة. حضر اللقاء د. نجيب أبو حيدر وسناء أياس وعفيفة السيد وادفيك شيبوب وآخرون. وتكتب أن النتيجة تمثلت بأن أعاد محمد المشنوق صياغة البيان. تكاثرت الاتصالات التي تراوحت بين التشجيع والتحفظ والتردد.

دعيتُ والصديق أمين فرشوخ من قبل الصديق المشترك صالح فروخ لحضور الاجتماع وللاستماع إلى هذه الشابة تطلق فكرة مبتكرة سبق أن قرأ اللبنانيون عنها في الصحف.

مركز الطوارئ الذي استحدثته جمعية المقاصد، خلال الأحداث، كان يتوسط شارع بشير القصار في منطقة فردان. وقد شهد لقاءنا الأول بهذه الناشطة التي جاءت تعرض فكرتها على مجموعة بيروتية سبق لها العمل في مجال الخدمات وتأسيس اللجان الشعبية. وباعتبارنا من مؤسسي "الحركة الإنمائية"[١]، كان من الطبيعي أن نلبي الدعوة لنستمع ونتبادل الرأي، ونناقش من ثمّ آليات المشاركة.

النداء يلقى تجاوباً والحلقات تتسع غرباً وشرقاً

لطالما تساءل المرءُ عمّا يجعله متذكراً لتفاصيل اللقاء الأول؟ ولطالما طرحنا على أنفسنا سؤالين بديهيين: كيف يتعارف الأفراد؟ وكيف يصنّف واحدهم الآخر؟

من المتعارف عليه أن ذاكرتنا الانتقائية تلتقط بشكل لاواعٍ تفاصيل وشذرات من الاحتكاك الأول بأشخاص مميزين، أو هم يتميزون لاحقاً في أعرافنا. تغيب المناسبة إلى حين، وتتلاشى معها التفاصيل. ولكن بعض الصور السلبية تتسلل إلى أعماق الذاكرة، وتتطبع بألوانها وتتراكم؛ وتلوح أحياناً في أخلادنا أو نعمد إلى استعادتها حينما يتطلبها السياق.

لا أزال لليوم أذكر تلك الشابة النحيلة، تصل برفقة السيدة نيكول مشنوق. تنتحي جانباً خلف طاولة الاجتماعات. تنساب الكلمات عفوية على لسانها. تسئل برشاقة سيجارة من علبة "المارلبورو" الحمراء. تشعلها وتدخنها بنهم. لم تتماثل في خاطري، إن في الصورة المتخيّلة عنها أو لدى حضورها أمام ناظري، بمناضلات "منظمة العمل الشيوعي" أو "الحزب الشيوعي" اللاتي عرفناهنّ في سبعينيات القرن المنصرم مظهراً وأفكاراً ولغةً. ملابسها المتواضعة على شيء من الأناقة والذوق، و"جينزها" الأزرق وشعرها المسدول، أضفت على بحة صوتها المميز، ملمحاً إنسانياً خفف بعض الشيء من غربة اللقاء والتشنجات التي ألقت بظلالها على النقاش الدائر. أنفض الاجتماع ونجحت في إقناعنا بصدق شعورها وشعاراتها على حدّ سواء. ولم يدر ببالي يومها أنني سأتولى لاحقاً كتابة سيرة حياتها لمجلة "باحثات"، بعد رحيلها المفاجئ!

لخطاب السلم نكهته، فكيف إذا صدر عن إنسانة آمنت به فرفعته دونما استغلال للعاطفة أو للشعارات المحببة. خاطبت الحضور بـ "لغة" مغايرة واستحضرت مفردات وتعابير لا تدخل في "أمر اليوم" اللبناني يومذاك. فمن "اللاعنف" إلى "السلام" فإلى "المسيرة" مروراً بـ "الأكثرية الصامتة" فـَ "الصرخة البسيطة وغير المعقدة"... مفاصل لخطاب سلمي لم نعتد إشهاره ونحن نطوي السنة التاسعة لحرب اختلفنا حتى على توصيفها" أهي "لبنانية" أم "أهلية" أم "حروب الآخرين على أرضنا"! بساطة الأطروحة لفتت المجتمعين واستثارت حميتهم. فالخطاب "أهلي" بامتياز يتجنب "النبرة التنظيرية المتعالية". لكن صدور المبادرة عن شابة مفعمة بالحيوية والصدق ومؤمنة كل الايمان بما تقول هو ما شدّني شخصياً إلى هذه التجربة الجديدة. ولا ننسى أننا كنا في خضمّ "حروبنا" العبثية، الذكورية بطابعها، حيث لم يكن يسمح للجنس اللطيف بأكثر من صورة مروتشة تتراوح بين حدّي "الممرضة" و"المتطوعة". ولم يدخل على هذا الخط سوى صورة بعض "النظاميات في حزب الكتائب"[٢] اللواتي حملن السلاح في "المقلب الآخر". أما أن تكون شابة مغمورة، ولن أقول مغامرة، هي "داعية السلام" والمحرك لمسيرة شعبية، فهذا أمر مستجد في المشهد اللبناني، وبخاصة في أجواء الشحن والانقسام والتقاصف الاعلامي والمدفعي الذي كان يدفع بهنّ وبأطفالهن إلى عمق الملاجئ ورطوبتها. ومنذ ذاك التاريخ، شكلت إيمان لنا "قطباً

جاذباً"، إذا صحّ التوصيف. وبالرغم من عدم قدرتنا على الذهاب بعيداً – ولو ذهنياً – لاستشعار المراحل المقبلة، فقد أقبلنا بحماس شديد على المشاركة لإطلاق حملة تنظيمية بغية تعميم الفكرة وتوسيع أطر الاتصالات واستقطاب مختلف الناشطين في مؤسسات المجتمع المدني من كلا المنطقتين. الإتصال الأول من "المنطقة الشرقية" جاء من السيدة لور مغيزل التي تذكر إيمان أنها شجعتها ولكنها كانت في الوقت نفسه "متحفظة بعض الشيء". كان لا بد من التوجه إلى الشطر الشرقي. لذا، قرّ الرأي على العبور على الأقدام ومباشرة الاتصالات. وهناك اتسعت الحلقة لتضم المطران غريغوار حداد والأب مارون عطاالله وليونيل غرّة وهاني فغالي وأنطوان سبع وإيلي نجم وآخرين.

الفنانون يتجاوبون والاعلاميون يتهافتون

حدث ذلك في ٢١ نيسان، وبدأت التواقيع على النداء تتتالى. وتذكر إيمان أن وكالات الأنباء نشرت البيان وبثته الإذاعة والقناة "٥" فقط. صحيفة النهار لم تنشر الخبر أسوة بالصحف الأخرى لأنه كان مجرداً من التواقيع. وبعد اتصال، نشر مجدداً وتم التشديد على فكرة المبادرة الشخصية. تكاثرت المقابلات الصحافية وعمت الفكرة. وبالتوازي مع البيان المكتوب، كان لا بد من إطار فني يحتضن الفكرة ويجسدها في نتاج مبتكر. لذا تكتب إيمان أن لقاءً جمعها هي ونيكول مشنوق بنواف سلام في مقهى Express. وهناك التقوا بجورج زعني والفنان رفيق شرف الذي تبرع برسم لوحة شعارها "السنة العاشرة سنة السلام". أما جورج زعني، فرسم "الزلمي" bonhomme الذي اتخذ شعاراً للمسيرة، يجسد فكرتها المباشرة الجامعة بين السلام ونقيضه الحرب. وتطورت ملامحه لاحقاً على يدي نواف ونادر كما تذكر إيمان في مدوناتها. الفنانون تجاوبوا وتحركوا. وصلتهم "رسالتها"؛ فخرجوا عن صمتهم. بعد رفيق شرف وجورج زعني، قابلت إيمان بول غيراغورسيان وتمنت عليه رسم لوحة شعارها "نريد الحياة". وبموازاة هذا الجهد، انتظمت لجان العمل وتحركت محطات التلفزة الأجنبية لمتابعة هذا "الحدث". ووفق شعار "مكره أخاك لا بطل"، أصبحت إيمان نجمة بالقوة، وبات عليها الوقوف أمام الكاميرات والارتجال بالعربية والانكليزية بعد أن كانت تتردد "إذا كان عندي تقديم في الصف". تكثفت الاجتماعات والاتصالات. وما أثر فيها كثيراً تمثل بهدية تلقتها في ٢٨ نيسان من غسان تويني، وهي عبارة عن شريط "حنين إلى أرض الحرب" لناديا تويني. وتكتب في يومياتها عن هذا النهار "مساءً بكيت، ضغط متواصل وتعصيب، تحدثت مع لور مغيزل على التلفون وكان الحديث نوعاً ما سلبياً". وفي اليوم التالي استضافتها وبعض المنظمين "إذاعة لبنان". وبعدها بوشر بتوزيع المنشورات الداعية للمسيرة. وتم تقديم طلب لترخيصها في ٢٨ نيسان، وزار وفد الرئيس رشيد

كرامي لهذه الغاية فوافق وبارك[٣]. وبالطبع تحركت "اللجنة الأمنية الرباعية" وطلبت في ٣٠ نيسان، عقد اجتماع مع إيمان ونيكول مشنوق. في الأول من أيار تحركت الهيئات والمنظمات الأهلية وبدأت تتحضر للمسيرة (مدارس، جامعات، اتحاد المقعدين، كشافة،...) في اليوم التالي استكملت "عدة التحرك" فأخذت الملصقات التي تحمل رسَمْي شرف وغيراغوسيان طريقها نحو التوزيع واللصق. وتذكر إيمان أنها توجهت في الثالث من أيار إلى مكتب منظمة الأمم المتحدة في رأس بيروت حيث ترافقت مع نادر سراج لإجراء مقابلة إذاعية مع ماغي فرح في "صوت لبنان". ومن ثم انتقلا إلى مقر المجلس النيابي لحضور المؤتمر الصحافي. وتكتب خواطرها عن هذا الاجتماع "كنت محاطة بنواب لم أعرف أسماءهم[٤]، كنت أشعر كما لو أنني موجودة في مكان ليس مكاني الأصلي".

تغيّر الكثير في أفكارها وفي سلوكها بما في ذلك "مكانها الأصلي". ففكرة المسيرة تطورت بسرعة مذهلة. والاتصالات الأمنية التي كانت تأباها إلى حين باتت ضرورة. والمقابلات الاعلامية أمست من "عدة الشغل".

شكوك واضطرابات تنذر إيمان وتدفعها للتشكيك في حقيقة انتمائها

تتذكر إيمان أن الشكوك بدأت، قبيل يومين من الموعد المضروب، تتسرب إلى أجواء المنظمين، الذين طالب بعضهم بإلغاء المسيرة بسبب اضطراب الأجواء السياسية (المنطقة الغربية ضدنا، اشتباك على كورنيش المزرعة بين "المرابطون" والاشتراكيين، موجة إشاعات...). وبالرغم من ذلك، استمر العمل في ورشة التحضير في BUC . لكن فترة ما بعد الظهر حملت "الخبر اليقين"؛ إذ ابتدأ القصف على الجهتين. وسرعان ما لاحت في الافق بوادر إجهاض للتحرك الشعبي.

وتشير في مدوناتها للذعر الذي دبّ في نفسها "وبدأت أشعر كما لو أنني لم أعد انتمي لأية منطقة". وفي خضم هذه الأجواء المتلبدة، "تفقدها "أحد زوار الفجر" من رتبة ملازم و"عرض عليّ خدماته". وبالطبع اجتمع فريق العمل مساءً، حتى الحادية عشر ليلاً، إثر نقاشات وجدال متعاظم اتفق على "أبغض الحلال"، وهو إلغاء المسيرة، والاستعاضة عنها بحملة وطنية للتواقيع، واتفق أن يتولى نادر سراج إذاعة الخبر ليلاً عبر نشرة الأخبار الرسمية على القناة "٧". ولكن رئيس البلدية كان قد سبقنا إلى ذلك. امتعضت إيمان وانطوت على نفسها وعضت على الجرح وهي تستعيد فقرات من المنشور الذي وزع في أرجاء المدينة وتلقفته آلاف الأيدي والقلوب "لنخرج من صمتنا... من خوفنا... من عزلتنا... من دموعنا وصيحات الألم...". فغصّات السنوات

الماضية لن تتوارى؛ بل ستبلغ عامها العاشر". وخلال لحظات، استعادت في خاطرها مانشيتات الصحف التي تمايزت في الدعوة للمسيرة: "Marche contre la Guerre"[٥] "مسيرة ٦ أيار من البربير والعدلية إلى المتحف"[٦]، "دعوة للصامتين للخروج في مسيرة من شطري العاصمة"[٧]، "لا للحرب... لا للسنة العاشرة مسيرة في ٦ أيار إلى المتحف"[٨]، "لا للحرب والسنة العاشرة، دعوة إلى الأكثرية الصامتة لتشارك في مسيرة المتحف"[٩]، "Non à la guerre, Oui à la vie:slogan du comité de la marche pour la paix"[١٠].

استفاقت في داخلها الأنثى، فعادت بها الذكرى الى سؤال طرح عليها في إحدى المقابلات عن سبب مطالبة المرأة بالسلام في حين أن الرجل يحارب ويدمّر. فردت بالقول إن رجالاً كثيرين تجاوبوا معها وأنها لا تعتقد أن هناك تمييزاً أو دعوة نسائية فئوية[١١]. وبالرغم من التعاطف معها، فهي لم تشأ أن تختصر هذا التحرك الشعبي في شخصها. فاعتبرت أن دورها في "هذه الفكرة التي كبرت مثل كرة الثلج"[١٢] تمثل في "تحديد المكان والزمان، وما أطلبه هو ألاّ يخيب المواطنون أملهم في أنفسهم"[١٣]. وتتذكر بمرارة كيف أن فرص نجاح المسيرة دفع ببعضهم الى إعادة الفضل إليه "خطر لي تحييد بيروت وإعادة توحيدها بمسيرة شعبية"[١٤]. كما عادت بها الذكرى الى الصحافة الأجنبية التي ساندتها وأسهمت في تحريك لبنانيني "الخارج" وخاصة في باريس ولندن ونيويورك، ونقلت أخبار المسيرة في كبريات الصحف العالمية: نيويورك تايمز (Friedman)، الاسوشيتد برس (Miller)، NBC (Wrong)، راديو هولندا (Key Lan)، CBS (Pinlake)، ABC (Ragers)، دايلي تلغراف (copps)، تايم ماغزين (Foley)، Le Monde (جورج).

****

اغتيال مسيرة لا يعني اغتيال إرادة شعب

تستعيد بمرارة مسلسل الأحداث التي تسارعت عشية السادس من أيار، فلا تجد سوى مفردات أربع تختصر المآل التي انتهت إليها: تصعيد فتفجير فتعطيل فإلغاء.

أكثر ما آلم هذه الجنوبية الحسناء التي "ملأت دنيا بيروت وشغلت ناسها بالمسيرة الوطنية التي دعت إليها"[١٥] هو أن العنف الذي حاولت وحفّزت الآخرين للوقوف في وجهه "وفي وجه تمزيق العاصمة الواحدة وتفريق أبنائها"؛ استمر وتابع غيّه "حتى حصد في شهر أيار والأيام التي مرّت من حزيران ما يزيد على ٢٥٠ قتيلاً و١٣٠٠ جريحاً"[١٦]. زميلتها نيكول مشنوق لم تخفِ استياءها فهذه هي "المرة الأولى من ثلاثة أشهر تقصف نقطة عبور المتحف بمثل هذا العنف. إن منزلاً اجتمعت فيه اللجنة أُصيب بأربع قذائف مباشرة"[١٧]. تتحسر لأنهم أوصدوا أبواب

الاحتجاج في وجهها ووجوه الآخرين وأوصلوها إلى قناعة أليمة جعلتها ورفاقها يتخلون عن فكرة تنظيم مسيرة، قدرت الصحف المشاركين المرتقبين فيها بمئة ألف[١٨]؛ بعد أن تيقنوا أنهم سيواجهون بقصف مماثل متى عينوا موعداً جديداً.

بيد أن ما أسقط بيد إيمان ورفاقها؛ هو أنهم في خوضهم لهذه التجربة الجديدة المشتركة التي جمعت ناشطين اجتماعيين مع العديد من ممثلي المجتمع المدني حول شعار اللاعنف قد لاقت صداها عند المواطنين العزل، ولكنها لم تنزل برداً وسلاماً عند فريقي النزاع والاقتتال. تناهى إلى أسماعها وقرأت، غير مصدِّقة، في اليوم التالي، كلاماً منسوباً لأحد الزعماء السياسيين اعتبر فيه "منظمي المسيرة غير مخلصين". وتابع: "أنا أفهم أن يكون الناس تعبوا وزهقوا من هذه الحرب، لكن منظمي المسيرة تذكروا الآن فقد أن لبنان يحتاج إلى السلام"! حاولت أن تستوعب أن المسالة هي مسألة توقيت خاطئ أو مبكّر ليس إلا! لكن الكلمات التي تلت جاءت لتصيب لبّ الموضوع ولتؤكد للجميع، منظمين ومشاركين مرتقبين وإعلاميين متابعين أنه "لا سلام في المطلق، ثمّة سلام اشتراكي، يساري، عربي، هناك سلام كتائبي، إنما سياسي واضح". وانتهى بإعطاء الجمهور حقه في الاختلاف في التعبير" "ولكن الشعب مختلف وأنا أفهمه إنما لسوء الحظ لا يمكنني عمل أي شيء"[١٩].

عودة الى الذات ومراجعة للموصوفات والصفات

ما فكرت يوماً أنها كأنثى، كمواطنة مسالمة، يمكن أن تحلم وتتجاوز خطوط المحرمات. لكنها اكتشفت متأخرة أنها لا تملك مقدرات تحريك الأحداث، ولا حتى إسباغ الصفات على الموصوفات!

تساءلت: هل أن انتقالها من ضفة المشاهدين إلى مسرح الأحداث ليس إلا حلم ليلة صيف عابرة؟ وبدا لها أن مداركها الأنثوية الشابة قصّرت عن الانتباه إلى أن للحرب صفاتها، وللسلم نعوته، التي تستعصي عادة على غير اللاعبين الكبار. فاتها أن للنعوت وظيفتها الفاعلة التي تمسي غالبة بحكم الاستخدام، فتبلور كيان الموصوف وتعلل حالته وتجلو صورته.

راجعت ذاكرتها المثقلة بفعل تسارع الأحداث، وتيقنت من مفردات البيان الذي دبجته ورفاقها، داعية فيه إلى المسيرة. لاحظت أن المائتين وثلاثين كلمة التي تنضحُ سلاماً ودعوة للحياة، لم تتضمن سوى نعوت ستة. تذكر أنهم تحدثوا عن الأحداث "الخافتة" وطالبوا بجعلها "مدوية" وهذا حقهم. وعبروا عن معاناة الناس الذين رفضوا أن يظل بلدهم "ممزقاً" وشعبهم "مشرداً" و"مهجراً"، ودعوهم إلى تحمل غصّات السنوات "الماضية".

تذكر أنها قالت في سرّها "نعم للحياة" ثم جاهرت وآخرين بها. ما لهم يقحمونها في لعبة سياسية لغوية، وهي التي ما فكرت سوى في التحرك لرفع معاناة جماعية وإخراج الأكثرية الصامتة من خوفها، للتعبير عن نفسها والمطالبة بسلمٍ للناس، للنساء وللأطفال الذين ما غادروا يوماً عالمها.

أسدل الستار، وسجّلت في مدوناتها أن التحرك الشعبي الذي كان وراء ظهورها على مسرح الأحداث تحوّل لاحقاً، وبتوافق منظميه، إلى أشكال بديلة منها حملة وطنية لاستفتاء اللبنانيين وجمع تواقيعهم حول "ميثاق للسلام بين اللبنانيين"، والدعوة إلى اعتماد الحوار سبيلاً لحل الأزمة والتخلي عن لغة العنف والتقاتل[٢٠]. وتوّجت الحملة بتوقيع كل من الرئيس رشيد كرامي والوزيرين عادل عسيران ونبيه بري هذا الميثاق. وتذكر إيمان بفخر أنها استطاعت الحصول على تواقيع ١٨٠٣٣ مواطناً خلال أسبوع واحد[٢١].

مآل التجربة ونوازع الأنوثة والطفولة

هذا الربيع حبل بأحداث جسام في مسيرة هذه الشابة، لذا نراها تنصرف إلى نفسها، تسترجع، وتحاول فهم ما استعصى عليها قراءته تلميحاً أو جهراً. فجلجلة السلام التي استغرقت منها ومن الزملاء الذين باتوا رفاقاً أعزاء قرابة الشهرين، غيّرت مجرى حياتها. إذ دخلت معترك هذا التحرك امرأة قوية ومنتصرة وقادرة على تحريك الآخرين. لكنها خرجت مصدومة وخائبة وشبه منهزمة. تساءلت في قرارة نفسها: هل توقفت التجربة ها هنا؟ هل انتهت مفاعليها؟ ماذا سيحل بـ"حزب المقتولين"؟[٢٢] وهذا التعبير الذي ورد على لسان الرئيس تقي الدين الصلح لفتها لأنه كان خير توصيف لواقع الحال الأليم.

لم تملك سوى العضّ على الجراح، التي نالت من البلد أكثر مما أصابت عزيمتها الشخصية. الحياة ستستمر بالطبع، كما واساها المحيطون بها من أصدقاء وزملاء بدأوا يتناقصون بمرور الأيام. راجعت حسابات الأمس وتذكرت أن أنوثتها كانت عامل نجاح لها في تجربتها، فقد كانت بمنزلة نقطة الاستقطاب التي أسهمت في جمع الأضداد وتدوير الزوايا وتجاوز الحساسيات وحلحلة العقد. لقد دارت الأحداث حولها بوصفها الأنثى المستقطبة والرحم الدافئ والحاضن.

التزامها العاطفي وحساسيتها المفرطة وبراءتها الطفولية التي لطالما أُخذِت عليها. تحولت بفعل الممارسة والاحتكاك اليومي إلى سمات إيجابية انعكست على روحية عمل الفريق.

شيئاً فشيئاً يستعيد المرء تفاصيل مؤلمة اعتورت مسيرته وأدرجها زوايا النسيان في ذاكرته. بعد النتائج التي انتهت إليها التجربة، تحولت إيمان إلى إنسانة فقدت الى حد ما صلتها بقضايا

الشأن العام، فقدت إيمانها بإمكانية التغيير في البلد. داخلها الخوف على مصيرها وعلى مصائر الآخرين بالطبع. تساءلت مرّةً: هل بالإمكان تثمير هذه التجربة؟ وكيف يمكن أن تستمر؟ أعيتها الإجابات فانصرفت مجدداً إلى رياض الأطفال، فهي لا تزال في يقينها أكثر العوالم صدقاً باعتبارها تتضح بالبراءة والصدق والطهارة.

المسيرة تستمر في النفوس والتقدير يأتي من السويد

نهاية "عام الخيبة"[٢٣] أعادت لإيمان الثقة بنفسها وبأفكارها اللاعنفية. إذ كانت على موعد مع استحقاق عالمي مميز فتح كوة في عالم الانكفاء الذي عاشته خلال خمسة أشهر. فقد مُنحت في ٦ كانون الأول ١٩٨٤، وفي احتفال عقد في مبنى البرلمان الأسوجي، جائزة السلام "للأكثرية الصامتة" من مؤسسة "رايت ليفليهود" The Right Livelihood، المماثلة لجائزة نوبل، والتي أنشأها الأسوجي فون يكسكول، وتمنح للذين يعطون السلام في بلادهم قوة دفع. لم تستأثر "معنوياً" بهذا التقدير يأتيها من "خارج الحدود". فقالت يومها خلال مقابلة صحافية: إن هذه الجائزة "هي للأكثرية الصامتة تقديراً لها على تحملها تسع سنوات من الحرب ولأنها فكرت يوماً بصرخة "لا للحرب، على رغم إسكاتها[٢٤].

هذه الشابة اللبنانية أجيزت على فكرة السلام، جنباً إلى جنب مع ثلاث سيدات حملن أفكاراً وحققن مشاريع: سيدة كينية (زراعة الأشجار) وأخرى هندية (توظيف النساء) وثالثة فيليبينة (إصلاحيات الأحداث).

لطالما افتخرت بالأخبار التي تصدرت صحف بلادها والتي كرّمت حركة السلام وأخيراً هدأت بالاً، فقد تسنى لها أن تكون صوتاً لبلادها، صوتاً لأصحاب هذه التجربة الجماعية الأولى في تاريخ لبنان. والجائزة برأيها تعزى لكل الناشطين أكثر مما تتناول شخصيتها الأنثوية المتواضعة والقلقة.

تمنت "السلام في نفس كل لبناني"، ولفتت في كلمتها التي تناولت الوضع اللبناني والحركات المناهضة للحرب إلى الظروف الصعبة التي تعمل فيها حركة السلام في لبنان. كما أشارت إلى "أن الجنوب يعيش تحت الاحتلال الإسرائيلي، وإنني محرومة من الذهاب إلى قريتي في الجنوب ومشاهدة أهلي, ودعت إلى إنهاء كل الاحتلالات ورفع صوت السلام عالياً"[٢٥].

ثقافة اللاعنف، ثقافة السلم التي امتلكت عليها انشغالاتها، غلبت في سلوكها على ثقافة الهوية وأحاديتها. ولكن مسألة انتمائها إلى جنوب لبنان حضرت في استوكهولم، كما كانت تعتمل على الدوام في دواخلها. وتذكرت وهي تركب الطائرة إلى العاصمة الأسوجية، كيف صاغت ردها على سؤال صحافي تناول هذا الانتماء الجنوبي: "هو ساحة التعايش والانفتاح... وقد يكون من

الواجب أن يأتي الجنوب في طليعة المطالبين بتوحيد لبنان انطلاقاً من عاصمته"[٢٦]. منبتها الجنوبي كان عنوان اعتزاز لها، لكنها لم تفهمه أبداً تعصباً وانحيازاً.

إيمان تغادر البلد والقضية

بطيئة مرّت أعوام الانتظار والانشطار واليأس والقلق من ١٩٨٥ إلى ١٩٨٩، تلك التي شهدت فيها إيمان، وألوف اللبنانيين بالطبع، "مفاخر" حروب الإلغاء والتحرير. وحمداً لله أنها لم تعش لتقرأ عن "حرب الإلغاء الثانية"[٢٧]. أصرت على البقاء رغم المنحة الدراسية التي تلقتها للتخصص في مجال "التربية المتخصصة"، فالتزامها بوالدتها حال دون سفرها. ولكن أوان الرحيل آن، فغادرت القضية والبلد إلى فرنسا وتحديداً إلى باريس. تعبت من اجترار غصّات الماضي وعدّ الأيام والشهور وانتظار مراحل الإنماء والإعمار والتحرير المنجز. لم تنتظر الطائف ووثيقته وإنجازاته الواعدة بسلم أهلي ذي صفة "عربية" هذه المرة. تركت ساحتَيْ الحرب والسلام للاعبيها الحقيقيين، وتجرعت حقيقتها الأنثوية المرّة والعارية. حملت حقائبها وخيباتها وغادرتنا إلى بلاد الحرية والإخاء والمساواة.

صحيح أنها استشعرت في نيسان ١٩٨٢، بفطرة الأنثى الجريحة، الخطر الداهم عليها وعلى "أطفالها" وعلى مواطنيها. فصرخت وذهبت صرختها في وادٍ. لكنها اليوم تستشعر مجدداً بضرورة تغيير المكان طالما لم يُسمح لها لا بصنع الأحداث ولا حتى بتوقيتها!

تذكرت أن الاستحقاقات والأحداث الجسام تؤصل فينا جذورنا؛ فمن الغازية جنوباً، إلى ضاحية بيروت الجنوبية التي درّبت فيها حادقات الأطفال، فإلى بيروت عاصمةً، وصولاً إلى استوكهولم مدينة مكرّمة، كان لبنان وسلام أهله وهناءة أطفاله شغلها الشاغل.

وتصل السيرة الذاتية إلى خواتيمها. فرحلة الغربة طالت واستمرت من أيلول ١٩٨٩ حتى كانون الأول ١٩٩٩. "والمواطنة الجنوبية"، كما أطلقت عليها صحيفة "النهار"[٢٨]، حبيسة حسرتين: حسرة "الداخل" المنزوي في جسم ناحل بدأ المرض الخبيث ينهشه في غربة قسرية أين منها غربة "أهل البلد"؛ غربة أبعدتها عن الأهل والخلان، لكنها ما أطفأت جذور القضية في دواخلها. وحسرة "الخارج" الذي يحتضنك ويأويك، لكنه لا يعترف بك ولا يقبلك نداً له ضمن حضاراته المتصارعة والاستهلاكية. أحبت فرنسا وحملت جنسيتها ولكنها لم تفكر يوماً في الارتباط بفرنسي كما أسرت لصديقة عمرها سونيا التي واكبتها حتى الرمق الأخير.

توقف قطار العمر في المحطة البيروتية، كما كانت رغبتها الأخيرة. وحين أقبل هادم اللذات ومفرّق الجماعات، كان الحشد نفسه، من شطري بيروت، يتحلق حول إنسانة رقيقة تركت بصمة دامغة في حيوات الكثيرين، وكانت علامة فارقة في ذاكرة الكثير من اللبنانيين وفي سجل النشاطات السلمية واللاعنفية، في لبنان. وطنها المتنوع الذي طالما أحبت اجتمع مختلف فرقائه في لحظة وداعها الأخير؛ فتلى صديق مسيحي سورة ياسين عن ظهر قلب، وطلب الجميع الرحمة لروحها والغفران لمن فاتهم أن يسمعوا صوتها الصارخ في البرية "لا للحرب، نعم للسلم، نعم للحياة". خروجها الدرامي من سفر الحياة كان التزاماً بحد ذاته. شهيدة للسلام المفقود هي. لكننا نقول ختاماً: ليتها عاشت بضع سنوات إضافية لتتعرف على مصطلح لبناني مستجد هو "الشهيد الحي"؛ حالة عاشتها في قرارة نفسها دون أن تدري أو بالأحرى دون أن تدعنا ندري!

---

[١] – نشأت في العام ١٩٧٥ ولعبت دوراً في في تنظيم شؤون الحياة اليومية في غرب بيروت، وتملك تجربة في مجال العمل الشعبي.

[٢] – ثمّة صورة مشهورة لجوسلين خويري رئيسة النظاميات في حزب الكتائب من تصوير فاروج مافليان مدرجة في كتاب "لبنان فلبنان"، زافين قيومجيان، دار النهار، بيروت، ٢٠٠٣، ص. ٢٨.

[٣] – الصحف اللبنانية، ١٩٨٤/٥/٣.

[٤] – حضر المؤتمر نقيب الصحافة محمد بعلبكي ونائب رئيس مجلس النواب منير أبو فاضل والنواب شفيق بدر، البير مخيبر، لويس أبو شرف، خاتشيك بابكيان، فضلاً عن أعضاء من اللجنة المنظمة للمسيرة وحشد من الإعلاميين.

[٥] – L'Orient-Le JOUR, 22/04/84

[٦] – صحيفة السفير، ٨٤/٤/٢٢

[٧] – صحيفة اللواء، ٨٤/٤/٢٢.

[٨] – صحيفة النهار، ٨٤/٤/٢٢.

[٩] – صحيفة العمل، ٨٤/٤/٢٢.

[١٠] – L'Orient-Le JOUR, 27/04/84

[١١] – مقابلة مع مجلة الحسناء، بيروت، ٨٤/٥/٢.

[١٢] – مانشيت لمقابلة أجرتها صحيفة النهار معها قبيل خمسة أيام من المسيرة (٨٤/٥/١).

[١٣] – مجلة الحسناء، ٨٤/٥/٢.

[١٤] – تصريح لرئيس اللجنة القائمة باعمال بلدية بيروت المحامي شفيق السردوك عن "مسيرة ٦ أيار"، صحيفة النهار ١٩٨٤/٥/٣.

[١٥] – ميرفت سيف الدين، مجلة "الصياد"، العدد ٢٠٦٤، ٢٣ – ١٩٨٤/٥/٢٩.

[١٦] – مقتطفات من بيان "لجنة ٦ أيار"، صحيفة "النهار"، ١٩٨٤/٦/١٣.

[١٧] – صحيفة "النهار"، ١٩٨٤/٦/١٣.

[١٨] – صحيفة "النهار"، ١٩٨٤/٥/٥.

[١٩] – تصريح للسيد وليد جنبلاط، صحيفة "النهار"، ١٩٨٤/٥/٨.

[٢٠] – الصحف اللبنانية، ١٩٨٤/٦/١٤.

[٢١] – صحيفة "النهار" ١٩٨٤/٦/٢٣.

[٢٢] – تعليق لشكري نصر الله نشر في مجلة المستقبل، ١٩٨٤/٥/١٢.

[٢٣] – عنوان المقابلة مع مجلة الصياد، ١٩٨٤/٥/٢٣.

[٢٤] – صحيفة "النهار"، ١٩٨٤/١٢/١٨.

[٢٥] – صحيفة "النهار"، ١٩٨٤/١٢/١٠.

[٢٦] – مجلة "الصياد"، ٢٣ – ١٩٨٤/٥/٢٩.

[٢٧]– عنوان إيحائي للتجاذب السياسي بين عون وجعجع حول الانتخابات الفرعية في دائرة بعبدا– عاليه، تصدر غلاف مجلة "الكفاح العربي" العدد ٣٨٣٣، ٢٠٠٦/٢/٦.

[٢٨] – صحيفة "النهار"، ١٩٨٤/٥/٤.